

من صفات الثقافة العربية

إن اختلاف الظروف الطبيعية وتباين الفترات الحضارية التي تعيش فيها المجتمعات الإنسانية المختلفة، فرض على كل مجتمع أن تكون له ثقافته الخاصة به، وهي ثقافة تتبع من الحضارة التي تعيش فيها، ما يجعل كل ثقافة تتطور مع تطور الحضارة التي تنتمي إليها. وبسبب تبلور الثقافات عبر آلاف السنين، وتطورها تحت ضغوط ظروف داخلية وخارجية، طبيعية واجتماعية وتكنولوجية، فإن الثقافة أصبحت من أهم الصفات التي تميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى. وتلعب الثقافة بعناصرها المختلفة دوراً محورياً في تحديد قدرات الشعوب على تحقيق التقدم من عدمه، إذ فيما تدفع بعض الشعوب إلى المطالبة بحقوقها، تشجع شعوباً أخرى على الخنوع والتواكل والقبول بأنظمة الكبت والقمع. ويعود ذلك إلى ما للثقافة من تأثير كبير في موقف كل مجتمع من الذات والغير والبيئة التي تحيط به، وقيامها بتحديد نظره إلى الحياة والكون. بعض الثقافات لا ترى بديلاً للاستقرار، حتى حين يكون الاستقرار على حساب حريات الناس وكرامتهم وقوت يومهم، بينما ترفض ثقافات أخرى ذلك الموقف باعتباره موقفاً انهزامياً لا يليق بحياة إنسان ولا يحترم كرامته وإنسانيته.

وبينما تتجه غالبية شعوب الأرض إلى الهروب من الواقع واللجوء لحضن الماضي الدافئ خلال فترات الانتقال الحضارية والأزمات المجتمعية، تترك القلة من الشعوب، خاصة القيادات الفكرية الخلاقة فيها أن فترات الانتقال الحضارية هي أفضل فترات الإخصاب الثقافي والفكري. الثقافات والشعوب التي تستأنس الماضي أكثر من الحاضر وتهاب المستقبل، كالثقافة العربية، تتصف عادة بالتخلف النسبي علمياً واقتصادياً وتكنولوجياً عن غيرها من الشعوب. أما الشعوب التي تتطور ثقافتها مع تطور حضارة العصر الذي تعيشه، وتتطلع بشوق نحو مستقبل تصنعه بأيديها، فتتصف عادة بالتقدم من النواحي العلمية والاقتصادية والتكنولوجية، والتمتع بدرجة أعلى من الحرية السياسية والاجتماعية. وبسبب تفاوت درجات التقدم والتحرر في العالم، اختلفت الثقافات والتقاليد والقيم بين مجتمع وآخر، ما جعل لكل ثقافة سلبياتها وإيجابياتها، حكماياتها وحكمها وعاداتها ومواقفها وطرق تفكيرها الخاصة بها. ومع أن لكل ثقافة سلبياتها وإيجابياتها، إلا أن تقدم بعض الشعوب وتخلف بعضها الآخر يعني أن إيجابيات ثقافات الشعوب الأولى تتفوق على سلبياتها، وإن سلبيات ثقافات الشعوب الثانية تتفوق على إيجابياتها.

أما فيما يتعلق بالثقافة العربية، فإن مما لا شك فيه أن لها الكثير من الإيجابيات والسلبيات. إذ فيما تعمل الإيجابيات على تقوية العلاقات العائلية وتعزيز الثقة التقليدية في المجتمع بوجه عام، تعمل السلبيات على إضعاف قدرة المجتمعات العربية على تطوير مؤسساتها وتحديث طرق تفكيرها وتحقيق ما تتطلع إليه من

تقدم وتحرر. وفي ضوء تخلف في البلاد العربية عامة، واتجاه الفجوة العلمية والثقافية والاقتصادية والفكرية التي تفصلها عن دول الغرب والعديد من دول الشرق إلى التنامي باطراد، فإن بالإمكان الجزم بأن سلبيات الثقافة العربية تتغلب على ايجابياتها. وفيما يلي قائمة ببعض السلبيات التي تتصف بها الثقافة العربية السائدة اليوم، وهي سلبيات تعلم الإنسان العربي:

- كيف يؤمن وليس كيف يفكر، كيف يعتبر الإيمان حقيقة علمية من دون برهان علمي، وليس كيف يعتبر العلم أساس الإيمان.
- كيف يُقاد وليس كيف يقود، كيف يتبع رؤساء العشائر والطوائف، ويسير خلف رجال الدين والمال والسلطة والجاه والسطوة، وليس كيف يعتر باستقلالته ويُعد نفسه لتحمل مسؤوليات القيادة.
- كيف يكون خنوعاً يقبل الذل والكبت والفقر، ويسكت على الظلم واغتصاب حقوقه، وليس كيف يعرف حقوقه ويطالب بها ويدافع عن حرّيته وكرامته.
- كيف يُشفقُ على الغير من محتاجين وبؤساء، وليس كيف يتعاطف معهم ويشعر بشعورهم.. نقول مثلاً رجل مسكين، دون أن نشعر بواجب التعرف على أحوال ذلك المسكين، والقيام بمساعدته على تحديد الأسباب التي أوصلته إلى وضع يغلب عليه اليأس والفقر والضعف، وتقديم العون له كي ينتشل نفسه من المستنقع الذي يعيش فيه، ويستعيد كرامته وسيطرته على حياته.
- كيف نعاير الغير بالعيب، أي نصفهم في وجوههم بارتكاب ما يُعيب، وليس كيف نشعر بالعيب والخل من أنفسنا حين نعتدي على حقوق الآخرين ونرتكب الأخطاء بحقهم.
- كيف تتنافس مع الغير من الزملاء والمعارف من دون أن نفعل شيئاً ذات قيمة معنوية أو مادية، وذلك باللجوء إلى الحسد والغيرة والتشكيك في مصداقيتهم، وليس كيف نحفز أنفسنا على منافسة شريفة من خلال العمل والإنتاج والإبداع وخدمة الصالح العام.
- كيف نكره من ينافسنا ونحاول أن نحطم معنوياته، وليس كيف نحترم من يتفوق علينا ونحاول أن نقلده ونتعلم منه.
- كيف نرفض النقد ونغضب ممن ينتقدنا بسبب التقصير، وليس كيف نحب من يُحزننا على الجد والمثابرة، ونحترم من يذكرنا بالتقصير.

- كيف نقبل الجهل ونستأنس الكسل، وليس كيف نرفض الجهل ونستأنس العلم والجد والعمل.
- كيف نشك في إخلاص الغير ونخشى التعاون معهم، وليس كيف نثق بالغير ونتعاون معهم.
- كيف نعتبر هدر الوقت فضيلة، وليس كيف نعتبر الاستهانة بالوقت رذيلة.
- كيف نتهاون مع من يهدر وقته ووقت المؤسسة التي يعمل فيها، وليس كيف نحترم المؤسسة التي نعمل فيها، ونحرص على مصلحتها ونعتز بانتمائنا إليها.
- كيف نسرق المال العام والشهرة والمصداقية من مستحقيها، وليس كيف نكسب المال والشهرة والمصداقية بالسهل والعلم والمثابرة كي نثري أنفسنا ونثريها.
- كيف ندعي العلم ونتصرف بعنجهية كلما شعرنا بتراجع معارفنا العلمية أكثر، وليس كيف نعترف بضآلة معارفنا ونتصرف بتواضع كلما تعلمنا أكثر.
- كيف نستحسن المبالغة ونُحبذ الغوغائية ونبتعد عن العقل والعقلانية، وليس كيف نستنكر المبالغة ونرفض الغوغائية ونلجأ إلى العقل والعقلانية.
- كيف نؤمن بالأرواح والأحلام، وليس كيف نؤمن بعلوم تستنسخ الأبقار الأغنام.